مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أفسس ٤: ٧-١٣)

يا إخوةُ لكلٍّ واحدٍ منَّا أُعطيَتِ النِّعمةُ على مقدار موهبَةِ المسيح* فلذلك يقولُ لمَّا صعِدَ إلى العُلى سبى سبياً وأعطى الناسَ عطايا* فكونُهُ صعِدَ هل هو إلاَّ أنَّه نزَلَ أولاً إلى أسافلِ الأرض* فذاك الذي نزلَ هو الذي صعِدَ أيضاً فوق السمواتِ كُلِّها ليملأ كلَّ شيءٍ* وهو قد أعطى أن يكونَ البعضُ رُسُلاً والبعضُ أنبياءَ والبعضُ مبشِّرينَ والبعضُ رعاةً ومعلِّمين* لأجلِ تكميلِ القديسينَ ولعملِ الخدمةِ وبُنيانِ جسدِ المسيح* إلى أن ننتهي جميعُنا إلى وحدةِ الإيمانِ ومعرفةِ ابنِ اللهِ إلى إنسانٍ كاملٍ إلى مقدارِ قامةِ مِلءِ المسيح.

تواضع المعمدان

في ثاني أيام عيد الظهور الإلهي نُعيِّد للقديس يوحنا المعمدان السابق والصابغ. رتبت الكنيسة هذا العيد نظراً للدور الرئيسي الذي يؤدّيه المعمدان في هذا الحدَث العظيم أي معموديّة السيد في نهر الأردن.

كثيرةٌ هي الألقاب التي تعطيها كنيستنا الأرثوذكسية ليوحنا، هو السابق والنبي والقديس والصابغ والمعمدان. لا تقتصر أهميّة المعمدان في الكنيسة على كونه عمّد بيديه السيّد بل تتعدّى ذلك لكونه مِثالاً في الطاعة والتواضع.

لم يكن المعمدان بحاجةٍ إلى نجمٍ أو أيّ علامة ليعرف الرب يسوع. على خلاف الرعاة والمجوس عرف يوحنا المسيح مذ كان جنيناً في حشا أمه فارتكض بابتهاج عند سماع صوت مريم (لو ١: ٤١).

نعرف أنّ المعمدان عاش في القفر مغتذياً بالعسل وكان يرتدي لباساً من وبر الإبل والجلد (متى ٣: ٤). ليس هذا إلاّ صورة مسبقة عن الرهبنة. فالرهبنة وجدت في المعمدان خير مثالٍ عن التواضع ونكران الذات. عندما أخذ المعمدان يكرز بقرب ملكوت السموات معمّداً اليهود (متى ٣:٥)، خرج إليه الآلاف من الجموع التي كانت تأتي لتعتمد وتسمع تعاليمه. لم يؤدِّ هذا الأمر بالمعمدان إلى نسيان رسالته. لم يحبّ ذاته أكثر من الكلمة التي كرز بها. تواضع المعمدان الأقصى نجده عندما يقول إنه لا يستحق أن يفكّ سير حذاء الرب (يو ١: ٢٧). ذاك الذي خاف الحاكم من محبّة الناس له وخروجهم إلى القفر لرؤيته، مَن كان له آلاف التلاميذ، ينحني أمام الناصريّ.

أحبّ المعمدان الربّ يسوع فقال: «ينبغي أنّ ذلك يزيد وأنّي أنا أنقص» (يو ٣: ٣٠). هنا نكران للذات ولمجد العالم بالمطلق، هو سحقٌ للكيان أمام الألوهة التي أدركها يوحنا. إلاّ أنّ هذا التواضع المفرط ما كان ليجدي نفعاً لو لم يقترن بالطاعة. فذاك التواضع كان ليتحوّل تكبّراً لو لم يطع المعمدان سيّده. أطاع النبيُّ إبنَ النجّار إذ عرفه إلهاً قبل أن يسمع الصوت أو يرى الروح نازلاً. إن لم يُطع الإنسان فهو ليس بمتواضع.

في عصر العولمة الذي نتخبّط فيه. طغت الفرديّة على المجتمعات. أصبح التركيز على بناء الذات والكسب الفردي. هناك المستوى السياسي الحزبي، والمستوى التجاري المؤسساتي. كما يمكن أن نجد أثراً لشريعة الغاب حيث الغلبة للأقوى. لا نقصد الدعوة بالمجمل

العدد ٢/٢٠١٢

الأحد ٨ كانون الثاني

الأحد بعد عيد الظهور الإلهي

تذكار أمنا البارة دومينيكية

وأبينا البار جرجس الخوزيبي

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الثامن

الإنجيل

(متى ٤: ١٢-١٧)

في ذلك الزمان لمَّا سمعَ يسوعُ أنَّ يوحنا قد أُسلِمَ انصرفَ إلى الجليلِ* وترك الناصرةَ وجاء فسكنَ في كَفْرَناحوم التي على شاطئِ البحرِ في تخومِ زَبولونَ ونفتاليمَ* ليتمَّ ما قيل بإشِعياءَ النبي القائل: أرضُ زبولونَ وأرضُ نفتاليم طريقُ البحرِ عَبْرَ الأردنِ جليلُ الأُمم* الشعبُ الجالسُ في الظلمةِ أبصرَ نوراً عظيماً والجالسون في بقعةِ الموتِ وظلاله أشرق عليهم نورٌ* ومنذئذٍ ابتدأ يسوعُ يكرِزُ ويقولُ: توبوا، فقد اقتربَ ملكوتُ السموات.

تأمل

«توبوا فقد اقترب ملكوت السموات».

لديك أيضاً طريقاً آخر للتوبة ليس صعباً أبداً: الدموع. إبكِ على خطاياك كما تتعلّم من الإنجيل المقدّس. الرسول بطرس، هامة الرسل وصديق المسيح، الذي لم يقبل الإعلان الإلهي من الناس بل من الله الآب نفسه كما يشهد الرب قائلاً: «طوبى إلى النسك. النسك وعدم محبّة القنية مهمّان ولكن لكلّ شخص وزناته التي يجب أن يستثمرها. يجنح المجتمع عادةً نحو التطرّف متناسياً الحلول الوسطى التي لها حسناتها وتثمر توازناً فكرياً وإجتماعياً. طبعاً نستطيع أن نعيش حياةً يوميةً بسيطة تكون في الوسط بين الترف والزهد.

لا نجد اليوم قناعةً كالتي عهدناها منذ سنوات ليست ببعيدة. والمشكلة هي في إلقاء اللوم على الله. اليأس هنا نقيض التواضع إذ العيش باتّضاع وقناعة يبعدنا عن اليأس فنستطيع حينها إيجاد الفرح في خضمّ الصعاب. عندما نتواضع نجد مثالاً أمامنا هو ذاك الملك المولود في مذود البهائم. هو صورة التواضع التي يجب أن نضبط حياتنا على مثالها. دعوة المسيحي هي التواضع إذ هو مجبولٌ من التراب. أصبح الله إنساناً ترابياً مولوداً في زمن، لكيما باقتدائنا به، أي عندما نتواضع، نفهم سرّ ميلاده وظهوره الثلاثي في الظهور الإلهي.

قداس رأس السنة

في ما يلي العظة التي ألقاها سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس في قداس ذكرى ختانة السيد وتذكار أبينا الجليل في القديسين باسيليوس الكبير ورأس السنة.

«اليوم رأس السنة الجديدة بحسب التقويم العالمي. إنه اليوم الأول من سنة نرجو أن تكون سلامية، مباركة بحضور الرب فيها. لكن هذا اليوم بالنسبة للمسيحي هو كأي يوم آخر من السنة نعيّد فيه إما للرب وعمله الخلاصي أو لقديسين مجّدوا الله بحياتهم. هو يوم منحه الرب لنا لنتوب فيه إليه سائلينه بقلب مفعم بالرجاء أن يتقبّل توبتنا ويجعلنا من المؤهلين للسير معه والإتحاد به، محرِّراً إيانا من أثقال الخطيئة ومنيراً أذهاننا لنحسن التمييز بين ما هو نافع لخلاصنا ولو كان صعباً، وما هو مسيء لحياتنا رغم سهولته، أي التمييز بين الباب الضيق الذي يؤدي بنا إلى الملكوت وبين الطريق السهل الذي يُدخلنا في الخطيئة ونهايتُها السقوط.

أول أيام السنة بالنسبة للمؤمن هو كأي يوم آخر، فيه يحاول أن يرتقي درجةً في سلّم الفضائل التي يصبو إلى امتلاكها وعيشها ليكون من المختارين.

نحن نعيّد اليوم لختانة الرب يسوع وللقديس باسيليوس الكبير الذي عاش في القرن الرابع وآمن أنّ العيشَ بحسب مشيئة الله هو الذي ينير العقل ويمنح الحكمة وأنّ كلَّ شيء زائلٌ ما عدا الله.

فبعد أن درس على كبار معلّمي زمانه التاريخَ والشعرَ والهندسةَ وعلمَ الفلك والمنطقَ والبلاغةَ والبيانَ والفلسفةَ والطبَ، وبعد أن راجَ صيتُه وانتفخ كبرياءً، خشيتْ عليه أختُه القديسة مكرينا واتهمته بالإستكبار والإدعاء. أثّر فيه كلامها إنما ليس إلى حد تغيير حياته، فجاءته الصدمة التي أخرجته من غروره إذ توفي فجأة أخوه نكراتيوس الذي كان أصغر منه وكان أجمل إخوته وأشدَّهم ذكاء وأوفرهم مواهب. فبان لباسيليوس بطلانُ المجد الأرضي وتفاهةُ أمور الدنيا، وانصرف إلى حياة الفضيلة. يقول: «بعد أن أمضيتُ زمناً طويلاً في الأباطيل وصرفتُ عهدَ شبابي في الكد والجد في تحصيل العلوم وبلوغ حكمةٍ تنكرها الحكمةُ الإلهية، صحوتُ يوماً كما يصحو النائمُ من رقاد عميق، ولمحتُ النور الباهر المشرق من تعليم الإنجيل، فعرفتُ بطلانَ الحكمة التي كنت قد تعلّمتُها وأدركتُ فراغها وزوالها وأسفتُ أسفاً شديداً على ما مرَّ من عمري حتى الآن... فتّشتُ عن صديق يدلّني على طريق التقوى... وأصبح جُلُّ اهتمامي أن أعمل على إصلاح أخلاقي بعد أن أفسدها طولُ اختلاطي برفقاء

لك يا سمعان بن يونا، إنّ لحماً ودماً لم يُعلن لك لكن أبي الذي في السموات» (أنظر متى ١٦: ١٧). بطرس هذا وقع في خطيئة كبيرة جداً إذ أنكر المسيح نفسه! وأقول هذا ليس لأتّهم القديس، بل لأقدّم لك سبباً للتوبة؛ نعم أنكر سيد العالم وحاكمه ومخلّصه! لكن لنأخذ الأشياء من البداية.

ففي أحد الأوقات رأى مخلّصنا عدداً من تلاميذه يتخلّون عنه، فحينئذٍ قال للإثني عشر: «ألعلّكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟». فأجابه بطرس: «يا رب إلى مَن نذهب وكلام الحياة الأبدية عندك؟» (يو ٦: ٦٧–٦٨). بعد قليل أيضاً قال الرب قبل أن يُسلَّم بقليل أنّ بطرس سينكره ثلاث مرات، لكنّ ذاك أكّد له بسذاجة: «ولو اضطررتُ أن أموت معك لا أنكرك» (متى ٢٦: ٣٥).

ماذا تقول يا بطرس؟ يقول الرب مسبقاً ما سوف يحدث وأنت تخالف؟ متى حدث هذا؟ في الليلة التي أُسلم فيها المسيح، وعندما صار في أيدي اليهود يُستجوب في قصر قيافا، وكان بطرس يجلس خارجاً في الساحة مع الخدّام يصطلي قرب النار منتظراً ليرى ماذا سيحصل، حينئذٍ اقتربت السوء، ثم قرأتُ الإنجيل ورأيتُ أن لا سبيل إلى بلوغ الكمال إلا بأن يبيع المرءُ ما له ويعطي للفقراء نصيبهم ويتخلّى عن مطامع الحياة جميعها حتى لا يبقى للنفس ما يعكّر صفوها من كل ما في الدنيا...».

عاش القديس باسيليوس حياة النسك والتقشف بعد الرفاهية التي عرفها، وانصرف إلى الصلاة وقراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء والتأمل. لم يكن يملك إلاّ رداءً واحداً وكان ينام على الأرض ويقتات من القليل القليل. بعد سنوات النسك سيم شماساً فكاهناً حوالي العام ٣٦٢ ثم رئيساً لأساقفة قيصرية كبادوكية. وقد عُرف بمحبته للضعفاء ومساعدته للفقراء. وعندما حلّت بقيصرية الفواجع من العواصف والطوفان والهزات الأرضية فالجفاف، انبرى باسيليوس لعمل الرحمة وباع ما تركه والده من أملاك واشترى بثمنها طعاماً للجائعين. وإلى تلك الفترة تعود أبرز مواعظه في شأن العناية بالفقراء. أما أبرز أعماله خلال أسقفيته فكان بناء المدينة الباسيلية التي اقامها عند مدخل قيصرية وكانت تضم مستشفى ومدارس ودوراً للأيتام وملاجئ للبرص وكنائس وفنادق...

القديس باسيليوس الكبير كان مثال المسيحي الملتزم، المسيحي الذي يطبّق وصايا إلهه ويعيشها، والذي لا يخجل من إعلان إيمانه والشهادة لمسيحه حتى الموت. لم يتورع من القول لمودستس والي المشرق، موفد الإمبراطور الهرطوقي والنس: «أنت حاكم وأحد البارزين، لكني لا أكرّمك أكثر مما أكرّم إلهي»... وعندما قال له مودستس «بإمكاني أن أصادر ممتلكاتك وأنفيك وأحيلك على التعذيب وأُنزل بك عقابَ الموت» أجاب باسيليوس: «لست أبالي، لا يمكنك أن تصادر مقتنياتي لأني لا أملك شيئاً، إلا إذا كنتَ تريد ثوبي العتيق هذا أو الكتب القليلة التي في مكتبتي. والنفي؟ ماذا يضيرني؟ حيثما حللتُ في أرض الله هناك يكون منزلي. لا يمكنك أن تنفيني من نعمة الله. والتعذيب لا ينال مني لأنه ليس لي بعد جسدٌ يحتمل التعذيب. ضربةٌ واحدة ويأتيني الموت. أما الموت فمرحى به لأنه يأتي بي سريعاً إلى حضرة الله المباركة. (كم هو كبير الشبه بينه وبين القديس اغناطيوس الإنطاكي الذي شاء أن يُطحن بين أنياب الأسود ليستعجل لقاء الله). تعجب مودستوس وتحيّر جداً وأجاب لم يجسر أحدٌ قبل اليوم على مخاطبتي بهذه اللهجة. فقال القديس باسيليوس: «ربما لأنك لم تلتقِ أسقفاً قط وإلا لكلّمك بالطريقة التي كلمتُك بها. نحن الأساقفة قومٌ ودعاء مسالمون... ولكن في سبيل الله لا نَحسَب حساباً لشيء، لا للتعذيب ولا للموت. فالتعذيب يقوّي عزيمتنا. أَهنّا، هدّدنا، إفعل ما يحلو لك. مارس سلطانك علينا ولكن ليسمع الإمبراطور كلامي جيداً: لن تقنعنا أبداً بالإنضمام إلى قوى الإثم مهما بلغ تهديدك لنا». هذا ما يجب أن يكون عليه كل مسيحي مؤمن. إنه ضميرُ العالم، لا يسكتُ عن خطأ أو ظلم ولا يماشي الإثم ولا يتغاضى عن الشرّ أو يمالق من أجل مصلحة.

باسيليوس الكبير كان إنساناً ضعيف الجسم لكنه كان قوياً في بذر كلمة الله ونشر تعاليمه. علمُه الكثير لم يمنعه عن الإستنارة بنور المسيح، وحكمةُ العالم بالنسبة له كانت جهالةً عند الله كما قال بولس الرسول. اكتفى بأن جعل حياته تعبيراً عن الفضائل السماوية. غناه كان في الإستغناء عن كل شيء في سبيل الله. حياته كانت عطاءً بلا حدود ومحبةً لا متناهية، فكان أن تمجد اللهُ به.

ما فضل واحدنا على الآخر غير المحبة؟ فاعملوا على ألاّ تفتر محبتكم وتذكروا دائماً أن إلهنا هو إله المحبة، وقد عيّدنا لفائق محبته في الأحد الماضي، ذكرى تجسده هو الذي

إليه فتاة صغيرة وقالت له: «وأنت كنت مع يسوع الجليليّ» (متى ٢٦: ٦٩)، لكنّه أجابها: «لستُ أعرف الرجل» (متى ٢٦: ٧٢). الأمر نفسه حصل مرّةً ثانية وثالثة، وهكذا تحقّقت كلمات يسوع الذي عاد ورمى بطرس بنظرة بليغة. لم يتكلّم مع تلميذه بالفم لكي لا يُخجله أمام اليهود، لكنه كلّمه بالنظر وكأنه يقول له: «يا بطرس لقد حدث كلّ ما قلته لك». عندئذٍ شعر بطرس بخطئه وبدأ بالبكاء، ليس بكاءً عادياً إنما بكاءً مرًّا. لنقُل إنه تعمّد بدموعه وتطهّر بها من خطيئته، خطيئته المخيفة التي هي إنكار المسيح.

أنت أيضاً أمحُ بدموعك كلّ خطيئة لك، إبكِ لا ظاهرياً ولا شكلياً بل بمرارة مثل بطرس، ولتنبع الدموع من أعماق نفسك لكي يرحمك الرب المحب البشر ويسامحك لأنه قال: «لا أريد موت الخاطئ بل أن يرجع فيحيا» (حز ١٨: ٢٣)، يطلب منك شيئاً صغيراً بينما يعطيك ما هو أعظم، ويطلب سبباً ليقدّم لك كنز الخلاص، بدموع التوبة القليلة يهبك الغفران.

القديس كيرلس الإسكندري

أخلى ذاته آخذاً صورة عبد من أجل خلاص العالم. أما اليوم فنعيّد لذكرى ختانته التي تمّت في اليوم الثامن لميلاده بحسب الشريعة. واليوم الثامن في التاريخ المقدس رمزٌ للدهر الآتي. إنه اليوم الذي يتجاوز أيام الأسبوع. إنه يوم القيامة، اليوم الذي أصبح فيه كل شيء جديداً. بختانته ختم الطفلُ الإلهي الماضي وفتح صفحة جديدة. لم تعد الشريعة هي القانون بل المحبة. أصبح هو، الرب يسوع، الألفَ والياء، البدايةَ والنهايةَ، الطريقَ والحقَ والحياةَ. وكما قال لأمه مريم «ينبغي أن أكون في ما لأبي» علينا جميعاً أن نقول ينبغي أن نكون في ما للرب وينبغي أن ينقص كلٌّ منا ليزيدَ هو، ليظهرَ هو نوراً وهداية للجميع.

في هذا اليوم المبارك أسأل الرب الإله أن يحفظكم جميعاً ويجعل سنتكم مباركة بكل أيامها، كما أسأله أن يحفظ حكامنا وجميع معاونيهم وينير سبيلهم ويعضدهم في خدمة هذا الوطن وبنيه، وأن يحلّ سلامه في هذا البلد وفي قلوب بنيه أجمعين. كما أسأله أن يبسط سلامه في منطقتنا وفي العالم أجمع، لكي يصبح العالم واحةَ سلام وأمن واستقرار، فلا نعود نشهد حروباً وصراعات أو نسمع عن مجاعات واضطرابات أو عنف وتفجيرات، وانتهاكات لأبسط حقوق الإنسان. هل يجوز أن تُنتهك حقوقُ الإنسان في القرن الحادي والعشرين، هل يجوز أن يُقتلَ إنسانٌ من أجل إيمانِه أو معتَقَدِه في العصر الذي وصل فيه الإنسان إلى أرقى مستويات العلم والإبداع؟ أليس من أولى أولوياتنا أن يحترم بعضنا حقوق البعض ويحافظ واحدنا على حقوق غيره كما يحافظ على حقوقه؟ كيف نتغنّى بأن عهود الظلام قد ولّت فيما تُنتهك أبسطُ حقوق الإنسان: حقه في حياة كريمة، حقه في التعبير عن رأيه بحرية، حقه في العيش كما يرتائي، حقه في الإيمان بما يشاء؟

صلاتي في هذا اليوم المبارك أن لا يبقى الكلامُ عن حقوق الإنسان كلاماً ونظريات بل أن يصبح حقيقةً معاشة فلا تعود الأنانيةُ والمصالحُ هي الحاكمة بل المحبةُ والمساواةُ والعدالة. صلاتي أن تكون أيامنا الآتية أفضل من الماضية وهذا يكون إن اعتمدنا الحكمة والحق والعدل والخير والرحمة منارات لحياتنا وهذه كلُّها نابعة من الله الذي هو محبة. الحكمة التي تحلّى بها القديس باسيليوس نزلت عليه من فوق، عندما تخلّى عن حكمة هذا العالم وشخصت عيناه إلى الله الناظر إلينا في كل حين.

من يستلهمُ اللهَ يستنزلُ نِعَمَه عليه، أما الشاخصون إلى الأرض، إلى أسفل، فلا يجدون إلاّ التراب. لذلك الليلةُ الأخيرةُ من السنة يجب أن تكون مناسبةً للتأمل في كل ما فعلناه في السنة الماضية، والتوبة، والرجاء بأيام أفضل، لا مناسبة للسهر والسكر واللعب واستشارة المنجمين.

ألا جعل الربُّ الإله سنتنا الجديدة مناسبةً يتلاقى فيها الوجه بالوجه ويُكرّم فيها الإنسانُ الإنسانَ فلا يحتقر أحدٌ أحداً ولا يؤذي أحدٌ أحداً ولا يحقد أحدٌ على أحد. هذا ما أتمناه للبنانيين جميعاً ولأخي الإنسان في أي مكان في العالم أجمع. إنسانُ اليوم يطمح إلى غزو الكواكب ويفتش عن حياة فيها. أليس حري بنا أن نهتم أولاً بمن يحيط بنا؟

باركم الرب الإله وحفظكم جميعاً وبلسم قلوب المعذّبين وعزّى الحزانى والمضطَهَدين وشفى المرضى والمتألمين وأعاد المفقودين وسكن في قلوبنا أجمعين».

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb